الدرس الثانى ٢

المعرفـــة

بقلم :

فضيلة الشيـخ سليمـان المدنى

سبق ان ذكرنا ان المعرفة هي فطرية، وهي من صنع الله وهي لا تخضع لقواعد العلم الحصولى الكسبي هو القول الذي يحل سائر الاشكالات الواردة عند سائر المسلمين في هذه المسألة.

والحقيقة ان الاشكالات المثارة من الطرفين ممن يقول بلزوم ايجاد الدليل وممن يجيز التقليد قد لا يمكن الاجابة عليها، حتى قال صاحب كتاب الحقائق الفيض الكشاني (ان مجرد ذهاب الانسان العامى للعالم وتعليمه صيغة الدليل، وتركيب مواده له لا يجعله مجتهدا ناظرا في تلك المسألة، فهو مقلد لذلك العالم الذي أقام اليه الدليل، ولا فرق في ان يسمى مقلدا بين ان يكون مقلدا في اصل الدليل او في نتيجته وهذا لا يحل الاشكال، وكذلك القول بانه يمكن الاعتماد على تقليد الاباء والاجداد او على الاكتفاء بما يأخذه الانسان من مجتمعه من اعتقادات قول يؤدي الى الفساد، بل كانت نتيجته بالنسبة لسائر المسلمين في هذه القرون نتائج سلبية كثيرة وهي اضرت بهم، حيث صار الدين عندهم امرا وراثيا كسائر الامور المتوارثة ا جتماعيا، فصار الانسان لا يحرص عليه لانه لم يبذل جهدا في تحصيله، ولا اشكال ان هناك جوانب سلبية كثيرة حتى لو قلنا انه من ناحية شرعية يجوز الاكتفاء في ذلك بالدليل.

الواقع ان قضية الايمان والكفر لا تقبل الوكالة فهي شخصية بحتة لا يصح فيها التوكيل مطلقا، بل على الانسان ان يتخذ قراره الشخصي الخاص فيها، اما ان يكون مؤمنا او لا يكون بغض النظر عن ايمان ابويه او مجتمعه او كفرهم، او ان يقرهأن الله موجود لان العالم الفلاني يقول ذلك، او يقر ان الله غير موجود باعتبار قول الفيلسوف الآخر فهو غير مقبول منه، فالقضية ترتبط به ذاتا في حياته ومماته، ولا اشكال ان من ناحية التقليد لا يمكن الركون فيقول الصادق(ع)(من اخذ دينه من افواه الرجال ازالته الرجال) باعتبار ان ما اخذ دينه تقليدا للرجال، فاذا جاء رجال حلوا من نفسه محل الرجال السابقين الذين يعتمد عليهم، او فاقوا في نفسه درجة عليهم، فالنتيجة ابعاده عما كان عليه الى ما يكون عليه ولا شك ان هذه القضية تبقى بالنسبة اليه معلقة فهي قابلة للتغيير كلما عظمت في نفسه شخصية وكلما هانت في نفسه شخصية.

وكذلك القول بان الدين يجب ان يكون عن نظر واستدلال، بالنسبة لمعظم الناس لا يمكن تعقله، بل لا يمكن تكليفهم، والا لكان تكليفا بما يعسر، فالله لم يفرغ كل الناس للنظر والاستدلال حتى يربط دينه والايمان به وملائكته وكتبه واليوم الآخر بالنظر والاستدلال. لكنه قال سبحانه وتعالى (فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله...» ويقول النبي (ص) «كل مولود يولد على الفطرة، وانما يهوده او ينصره او يمجسه أبواه» فقضية الايمان بالله سبحانه وتعالى مركزة في نفسه لا يمكنه الفكاك عنها، وما التنبيهات الواردة في الكتاب مثل افلا ينظرون الى الابل كيف خلقت والى السماء كيف رفعت والى الارض كيف سطحت...» الا تنبيها وتوجيها الى المشكلة حتى ينتبه الانسان الى مركز الفقر في نفسه، ويشعر بان كل ما في الكون مثله في حاجة الى موجد وانه لم يوجد نفسه، وكذلك الابل والسماء وغيرها، وكيف وجدت بهذه الصورة المختلفة ؟ وكذلك مدح اولئك الذين ينظرون في الكون ويتفكرون فيه باعتبار ان النتيجة اهتداء الى موضع النقص وموضع الفقر الى الله، وهو الشعور بالحاجة الى العلة «قالوا ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار...» فقضية الايمان قضية فطرية، ففي الدعاء الوارد عن الامام على (ع) «بك عرفتك وانت دللتنى عليك ولولا انت لم ادر ما انت» اي لا يصلح ما في الكون ان يكون معرفا لله لان المعرفَ يشترط ان يكون اعرف وأظهر وأشهر من المعرف، وعندئذ لا يتوصل الانسان الى معرفة الشيء الذي يريد ان يعرفه.

مثال ذلك لو كنت اجهل زيدا وسألت عنه فقيل انه ابن محمد ولكنى لا اعرف محمدا ففي هذه الحالة لا اتقدم خطوة واحدة في طريق المعرفة، او لو قيل لى هو ابا على ولكننى لا اعرف من هو على فكذلك لا اتقدم خطوة واحدة في طريق المعرفة. كما لو كان انسان يجهل اسم شجرة كشجرة السعدانة، ما هي السعدانة ؟ فيقول له قائل السعدانة نبت، فهو يعلم انها نوع من النبات ولكن ما هي السعدانة يبقى الجواب السعدانة هى السعدانة

كما يقول الشاعر (عرف الماء بعد الجهد بالماء).

فاذن لو اردنا ان نعرف الله تعالى بخلقه فلا بد ان يكون خلقه اعرف منه، لكنه هو اعرف المعارف، ولذلك ذكرنا بسبب ذلك المؤمن والملحد في الادراك على حد سواء، ماهي الا لقلقة باللسان، فعندما تسال الملحد عن أصل الكون لا يستطيع ان يقول انه كل جزء من الكون موجود في ذاته من غير حاجة الى موجد، فقوله هذا نفى لمبدأ العلية ونفي لسائر العلوم، باعتبار ان العلوم كلها سواء ما تعلق منها بالطبيعة او غيرها محتاجة الى علل ومهمة العلماء البحث عن العلل والاسباب حتى يمكنهم تركيب النتائج وتوقع حدوث النتيجة عند حدوث العلة. اما الصدفة فهي لا تجري في العلم، فالعلوم لم تستقم ولا ظهرت هذه الحضارات وشيدت بالصدفة. فاذا سألت الكيميائى عن هذه التركيبة من هذه المواد المختلفة وبهذه النسب تنتج المادة الفلانية فاذا كان غير متيقن لا يستطيع ان يتخذ قانونا او قاعدة يجري عليها ما يريد من تركيب ادوية وغيرها. فهذا يبحث عن علل وهذه ليست علل حقيقية، وانما تسمى مقتضيات لانه يشترط فيها عدم المانع، وهو

ليست كلما تلتقي تنتج فلا بد لها من ظروف معينة، لكن لو اراد الملحد ان يتجرأ وينفي مبدأ العلية لكان عليه ان يسقط كل العلم البشري عن الحساب، وهذا يجعله خارجا عن سنخ العقلاء، فهو لا يستطيع القول ان كل جزء من الكون يستغني عن العلة ولا شك انه لو نظرنا الى انفسنا والى سائر جزئيات الكون المشاركة لنا في الوجود نجدها تشترك معنا في معنى واحد وهو الفقر.

والفقر معناه الامكان أي يمكن الا يكون والدليل على ان الاشياء ممكنة وليست واجبة كونها ذات تاريخ لها بداية ولها نهاية، وما كان له بداية لا يصلح الا ان يكون وجد بسبب غيره والا لم يكن موجودا قبل بدايته، وبهذا لا نحتاج الى تعريف القديم والمحدث لأننا لا نستطيع أن نعطي معنى للقديم الا امتداد للزمان، والزمان ذاته له بداية، ونحتمل له النهاية، فيكون الاعتماد على الوجوب والامكان بدل الاعتماد على الحدوث والقدم، فلا داعي لأن نقول ان القدم في غير حاجة للعلة حتى لو جاء من يثبت بان الكون قديم، فباي معنى من معاني القديم ؟ لا يتضرر الاعتقاد بذلك اذا كان يعتقد ان الممكن في حاجة الى العلة ؟ وهو لا يستطيع ان ينفي هذا، والا لما استطاع ان يثبت برهانه على قدم الزمان ، لأن برهانه اما أن يكون بطريق الاستدلال بالعلة على المعلول والذي يسمى بالبرهان العلمي او الاستدلال بالمعلول على العلة والذي يسمى بالبرهان الأني.

وفي كلا الطريقين من طرق الاستدلال يعتمد على مبدأ العلية، فلا يستطيع اسقاط مبدأ العلية، ولا اجراء بحوث ولا اقامة دليل لاثباته، بل هو مركوز في اذهاننا باعتبار انه ما لم يكن كان فكان لابد ان يكون وجد بسبب وعندئذ يكون الملحد ملقلقا بلسانه شهوانيا حيوانيا ساقطا فهو انما ينكر التوحيد حتى يتخلص من التكاليف الشرعية لا لانه ينكر التوحيد بسبب ما يدعيه من برهان علمي، لان البرهان العلمي الذي يقيمه على عدم لزوم التعليل او لزوم العلية لا بد ان يعلله، فهو يستعمل مبدأ العلية، والا كيف يفهم الانسان برهانا لا يتضمن علة سارية كلما حصلت العلة حصل المعلول ؟ فاذن نفس برهانه على الالحاد هو برهان على التوحيد، وتبقى كما اذكرنا لقلقة باللسان، يريد ان يسلب من اوجده (حيا، قادرا، فاعلا، مريدا، عالما..» الحياة والقدرة والارادة وبمعنى آخر يجعل العلة اضعف من معلولها.

فالذي يقول بالمادة هل هذا مثل واجب الوجود ؟ لا... وانما اثبت وجوب الوجود الى ما ليس بواجب الوجود، لكنه لم ينف وجود شيء واجب الوجود حتى ديمقراطيس الذي اسس مبدأ الالحاد في العالم كله، والذي يعتمد الماركسيون قولته الشهيرة «ان الكون كان ولا يزال وسيبقى شعلة الى الابد وهو في غير حاجة الى العلة» فحتى هذا قد اسبغ وجود الواجب على الكون، ولذلك يقول «ان الكون كان ولا يزال وسيبقى من غير حاجة الى العلة» وهذا يعني انه لم يتمكن من نفي واجب الوجود غاية ما هناك اعطى الكون هذه الصفة (واجب الوجود) فيبقى الخلاف معه في مسمى واجب الوجود، فالذي يصلح ان يسمى واجب الوجود هل هو الكون ؟ ما هو الكون ؟

هذه الاشياء التي نراها في الكون كلها لها بداية ولها نهاية، فهي لم تكن حتى يقول كانت، هي كانت بعد ان لم تكن (يعني ان لها بداية) والدليل على ان لها بداية هو ان لها نهاية، فما لم يكن بأبدي لا يصلح ان يكون ازليا، وقوله سيبقى منافيا لما يشاهده بام عينيه من موت الناس وغيرهم، وتبدل الاشياء من مواضعها، فكيف يقول سيبقى ؟ من هذه الجهة لا يبقى مجال للنقاش في مبدأ التوحيد اذا قلنا ان المعرفة فطرية من صنع الله، وهو ما يتلائم مع النصوص الواردة عن الائمة المعصومين (ع) والذي ذكر بعضا منها «ليس للعباد في المعرفة صنع وانما على الله ان يعرفهم نفسه، فاذا عرفهم نفسه وجب عليهم ان يطيعوه» وقول علي (ع) «بك عرفتك وأنت دللتني عليك...» باعتبار انت خلقت معرفتك في نفسي وانت الذي الزمتني بالشعور الى الفقر، فأدركت وجودك، والا فذات الله لا يحيط بها العقل حتى تكون صورة علمية في ذهن الانسان، ولذلك فرق العلماء في هذا المجال فقالوا معرفة الله ولم يقولوا علما، وان كانت المعرفة سنخا من العلم، الا انهم خصوه بما يكون متعلقه بسيطا، فما يكون متعلقه بسيطا فهو معرفة، وما يكون متعلقه غير بسيط يسمى علما، وهذا المصطلح اول من اوجده هو الشيخ ابن ميثم البحراني ثم سار عليه سائر الفلاسفة الذين جاءوا من بعده، اما المتقدمون فلم يفرقوا بين العلم والمعرفة، وأنه منذ أيام الاسلام الاولى يطلقون على توحيد الله باسم المعرفة وعلى هذا فالعلم بهذا المعنى الفطري كان لازالة الشك الذي أثير.